

الجرد الوطني للتراث الثقافي الأمازيغي

بطاقة جرد عنصر رقم 7/066

1- تحديد العنصر

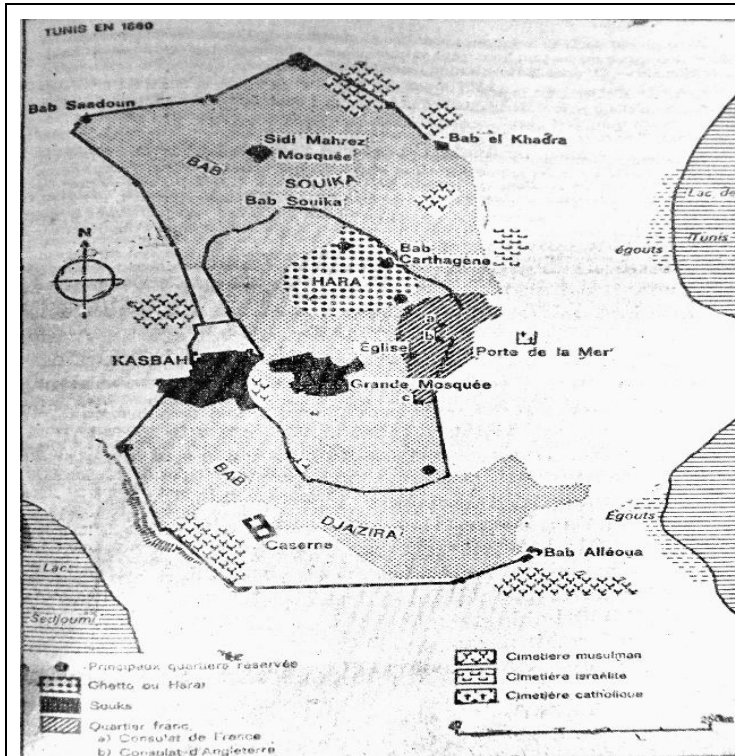
- الاسم العنصر

النقش على الرخام وتقنياته بمدينة تونس.

- أسماء أخرى متداولة في المجتمع المحلي

حرفة الرخام.

- الإطار الجغرافي لانتشار العنصر



شهدت هذه الحرفة اتساعا هاما منذ قرون، إذ انطلقت بالأساس من مدينة تونس لكي تشمل عديد المناطق والمدن الأخرى. ويتوزع انتشارها بمدينة تونس في نهج باب الخضراء ونهج طنجة ومنطقة مالمطة الصغيرة، وهي من أقدم أسواق مهنة النقش على الرخام بالقرب من أهم أبواب تونس شرقا والقصبة وباب الجزيرة. وهذه الحرفة على صلة وثيقة بالمقبرة الإسرائيلية القديمة والمقبرة المسيحية ومقبرة المسلمين المتواجدة في نفس المنطقة.

أهم المناطق المتواجدة فيها ورشات الرخام بالقرب من المقابر الثلاث.

- مجال أو مجالات انتماء العنصر

- المهارات المرتبطة بالحرف التقليدية.
- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.

2- وصف العنصر

كانت بداية الاهتمام بحرفة الرخام بمدينة تونس عند تناولي هذا العنصر في رسالة الدكتوراه مما أتاح لي الاطلاع على بعض الورشات بمنطقة باب الخضراء والورشة الموجودة قبالة المقبرة اليهودية "برجل" بمنطقة حي الخضراء. ولعل القرب من المقبرة اليهودية القديمة بتونس والتي عوضت حديقة عمومية هو الذي ساهم في تمركزها في هذه المناطق والتثبت من إن هذه المهنة كانت حكرا على اليهود بالأساس إلى أن أصبحت من اختصاص المسلمين فقط. والهدف من هذا البحث هو محاولة لإنقاذ هذه المهنة من الاندثار حتى تتمكن الذاكرة الحاضرة من مواصلة الذاكرة الجماعية السابقة.

إن تقنية النقش على ألواح الرخام مهنة اختص بها اليهود في الغالب منذ قرون، حيث ظهرت النقائش العبرية بتونس منذ العهد الروماني ولعل اللوحيتين الرخاميتين المحفوظتين في مخازن المتحف الوطني بقرطاج أحسن دليل على ذلك.

كما مثل اليهود خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أهم الحرفيين في هذه المهنة وبعد أن اكتسبوا شهرة كبيرة بالإيالة التونسية لما كانوا يتميزون به من خلال إتقانهم مهنة التجارة ومنها توريد الرخام من بايطاليا. حيث تواجد بعض اليهود ضمن أعيان الدولة الذين كانوا يخصصون مبالغاً مالية هائلة لاقتناء الرخام المستورد لتشيد القصور والأضرحة والقبور المزخرفة وذلك حسب طلب الحريف.

تواصلت هذه المهنة إلى القرن العشرين وهذا ما نجده من خلال أسمائهم المنقوشة على شواهد والموجودة في المقابر اليهودية بعديد المدن التونسية. أمثلة من المقابر بورجل بمدينة تونس والقيروان وسوسة و نابل و الكاف وغيرها من المدن التونسية. من أهم الحرفيين اليهود نذكر عائلة فورارو، برداه بتونس العاصمة.

على الرغم من هذا التألق واحتكار اليهود لهذه المهنة خلال قرون عديدة، إلا أن نهاية القرن العشرين شهدت تراجعا ملحوظا فتخلى الحرفيون اليهود لهذه المهنة إلى أن أصبحت اليوم حكرا على المسلمين. بعد استقلال البلاد التونسية سنة 1956، شهد المجتمع التونسي تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة. حيث هاجر العديد من يهود تونس نهائيا باتجاه أوروبا وفلسطين. وتقلص عدد الحرفيين "الرخامي اليهودي" لمهنة الرخام إلى أن أصبحت من اختصاص المسلمين فقط. فنجد في منطقة "باب الخضرة" بمدينة تونس بعض الورشات التي كانت لحرفيين يهود أو حرفيين تعلموا مهنة الرخام على أيادي يهودية. على سبيل المثال السيد فتحي العقربي صاحب ورشة.

إن استمرارية وجود هذه المهنة بمدينة تونس إلى اليوم لدليل على أهمية هذه الحرفة التي ارتبطت في أغلب الأحيان بتوارثها عبر الأجيال.

ليس غريبا أن تتمركز أكثر الحرف في نهج باب الخضراء، نهج طنجة، مالطة الصغيرة وأن يكون لها محلات خاصة بها لأن ذلك يؤكد الصلة الوثيقة بين هذه الحرف والمقبرة الإسرائيلية القديمة، المقبرة المسيحية ومقبرة المسلمين المتواجدة في نفس المنطقة.

كما فإن هذه المناطق مشروطة بوظيفتها الحرفية منذ القديم باعتبارها في وسط المدينة وقريبة من الأسواق.

- حرفة النقش على الرخام و تقنياتها

1. اختيار الحجم

تجلب قطعة الرخام من مقاطع عديدة منها ما هو محلي وما هو مستورد. فيختار صاحب النقيشة الحجم والسّمك المراد إليها. فيرطبها النقاش بعد صقلها ثم يقوم النقاش بترطيبه ثم يختار الواجهة التي سيكتب عليها النص.

2. عملية النسخ

غالبا ما يستعمل الرخامي القلم (قلم الرصاص) وورق شفاف يكتب عليه النص المراد نقشه. ولكن يوجد عند أحد الحرفيين بمنطقة باب الخضراء أسلوبان للنسخ. الأول هو الأكثر تداولا يتمثل في استعمال ورق شفاف يكتب عليه النص المختار ثم يلصق مباشرة على قطعة الرخام وبذلك تتم عملية النسخ. أما الأسلوب الثاني وهو الأقل انتشارا يتمثل في عملية النسخ مباشرة على قطعة الرخام.

3. عملية النقش والحفر

يختار صاحب النقيشة النص أو الصورة أو الزخرفة إن كانت غائرة أو بارزة وبذلك تختلف طريقة النقش عن الحفر وهي الأكثر انتشارا. فالحفر هو طريقة الشق الغائر والنقش البارز واستئصال الرخام لتكوين الشكل أو النص.

الزخرفة

باعتبار مهنة الرخام بمدينة تونس مهنة عريقة شأنها شأن العديد من المهن كمهنة النحاس والصياغة فقد أتقن يهود مدينة تونس وتفننا في النقش والزخرفة على الرخام مهما كانت وظيفة المحمل التي كانت تتميز بتواجد الزخرفة المحلية مع حضور مميز لأنماط زخرفية أجنبية أهمها الإيطالية. كما تختلف زخرفة القبور اليهودية باختلاف الرموز والإشكال التي تساهم في انعكاس طبيعة أو نوعية النقيشة. كما تعبر الزخرفة على عمر المتوفى وأحيانا تحديد أسباب الوفاة. فعندما يكون المتوفى صغيرا تكثر الزخرفة على شاهد القبر وتكون أكثر ثراء من جهة الإشكال والرموز. مثال: الإزهار والأغصان والعصافير والحمام. وفي هذا الحال تكون الزخرفة منقوشة وبارزة. ورغم انتقال هذه المهنة من اليهود إلى المسلمين حافظ يهود تونس عن النقائش والزخارف نفسها وهذا ما يدل عليه وجود العديد من هذا النوع حديث العهد في المقابر اليهودية. كما تواصل وجود الزخرفة نفسها على واجهات المباني ومحامل أخرى.

ختاما، ان استمرار تواجد حرفة الرخام التقليدية كشواهد تاريخية، تبين مدى انتقال هذه المهنة من اليهود الى المسلمين، فأهميتها مرتبطة بحفاظها على خصائصها التقنية واستخداماتها الوظيفية.

- العناصر المادية واللامادية المصاحبة للممارسة أو المهيكلة لها (الفضاء/ الأزياء/ الأدوات...)

اجمالا، تتم معالجة قطعة الرخام او صقلها في المحلات بالات وأدوات كهربائية بسيطة حيث يتم قصها وصلقلها الى ان تكون القطعة المراد استعمالها. ثم يتم ترطيب الجهة المخصصة للنقش باستعمال الأسطوانات المعدنية. أخيرا، يهتم النحات بالنص المراد كتابته والزخرفة المختارة. بذلك، تعتبر تقنية النقش على الرخام هي عمل يدوي بحت لا يعتمد على أدوات كثيرة سوى الأسطوانة المعدنية بمختلف احجامها، القلم للرشم، الورق الشفاف لتحديد الكتابة أو الزخرفة وآلة الزنيزير والمطرقة والمقص. وهنا تبرز مهارة الحرفي.

- الممارسات العرفية التي تنظم أو تمنع الوصول إلى العنصر

لا توجد ممارسات عرفية تمنع الوصول إلى العنصر.

- كيفية التعلم وطرائق النشر بين الأعضاء والتمرير للنشئة

كان تركيز اليهود بالأساس على المهن مثل مهنة الرخام وذلك بالتعاون مع التحالف الإسرائيلي العالمي (l'alliance israélite universelle) التي كانت توفر المعلمين والمختصين للتعلم وإعطاء فكرة عامة على المهن في مرحلة أولى ثم تكوين حرفيين مختصين وأكفاء. ومن هنا تكون أخصائيو يهود في مهنة الرخام وسهل عليهم عملية التوارث وكانوا من أحسن المعلمين الذين تعلم على أيديهم مجموعة من الايطاليين والمسلمين الذي قاموا بدورهم بتعليم غيرهم. وعرفت هذه المهنة بمنطقة مدينة تونس خاصة في نحت النقائش الجنائزية وعديد المحامل المتنوعة وكان لها إشعاع كبير في عديد المدن مثل تستور والكاف وسوسة أينما توجد بها نسبة هامة من اليهود. لهذا بقيت عديد أسماء النحاتين راسخة في ذاكرة أصيلي منطقة مدينة تونس وخاصة الحرفيين الذين توارثوا مهنة الرخام إلى اليوم.

3- الفاعلون المعنيون بالعنصر

- حملة العنصر من الممارسين له بشكل مباشر

حافظ عديد مهني الرخام عناوين والأسماء الأصلية على واجهات الورشات، والبعض منهم حافظوا على التسمية في ابقاء المحل على النمط ذاته والحفاظ عليه في الذاكرة الجماعية وذلك لغاية تمريرها للنائشة ولو بطريقة شفوية خاصة.

- مشاركون آخرون

تمكن العديد من الحرفيين المسلمين إتقان مهنة الرخام وإتقانها. كما ساهموا أيضا في إعادة تشكيل عناصر أخرى أينما كانوا من المدن التونسية. كما ساهم أصحاب المهن الأخرى في استمرارية مهنة الرخام حيث كانت لهم روابط وطيدة حيث ارتبطت أسماء بعض العائلات اليهودية بالمهن التي تكاد تكون حكرا عليهم. مثال: خياط بخياط، صباغ بالصباغ، نجار بنجار وكارفر بنقاش. شارك عديد المهنيين في وجود أصحاب أصيلي المهن في الذاكرة الجماعية التونسية الى الآن.

- منظمات غير حكومية/ المجتمع المدني

- الغرفة الوطنية للحرف وللصناعات التقليدية.
- جمعية صيانة مدينة تونس.

- هيئات رسمية

- المعهد الوطني للتراث: قسم المسح ودراسة الممتلكات الإثنوغرافية والفنون المعاصرة.
- وزارة الشؤون الثقافية: إدارة التراث.
- الديوان الوطني للصناعات التقليدية بتونس.
- المندوبية الجهوية للسياحة بتونس.

4-مدى قابلية العنصر للاستمرار: العراقيل والتحديات

تقلص عدد الحرفيين اليهود بصفة كبيرة بعد الاستقلال إلى أن حل محلهم حرفيون محليون. كما باتت هيمنة المعامل الكبرى تغطي على هذه المهنة مما يساهم في صعوبة الاندماج في السوق بصغار الحرفيين. حيث ان تراجع هذه المهنة بدا واضحا من خلال تتبع حالة محلات الرخايمية بمنطقة باب الخضراء وباب سويقة ومنطقة ماطة الصغيرة. فمن اهم الصعوبات، ان هذه المهنة راحت تفقد طابعها التقليدي اليدوي لتخضع للاستعمال المكثف للآلات العصرية هذا بالإضافة إلى هيمنة المصانع الكبرى واحتكار اصطحاب رؤوس الأموال لهذه المهنة. فدخلت حرفة النقش على الرخام مرحلة صعبة حتى أن بعض الدكاكين أغلقت لارتفاع تكلفة مادة الرخام وندرة اليد العاملة المختصة.

5- برامج التثمين وإجراءات الصّون

لقد ظلّت مهنة الرخام متواجدة رغم بعض الصعوبات فأصبحت تتوارث من جيل إلى جيل، ولعلّ الاحتفالات الدينية والعقائدية التي تقام حول القبور والأضرحة لدى اليهود لأحسن دليل على تثمين هذه المهنة. وطوال القرنين العشرين والحادي والعشرين مثلت مقابر اليهود بتونس متحفا مفتوحا لفن النقش على الرخام من قبل حرفيين يهود مثل عائلة "بوخبزة" و"بوكرع" بتونس وعائلة "تبي" بتونس وسوسة. حيث كانوا يستعرضون إبداعاتهم وتفننهم في النقش بأجمل وأروع ما أبدعه الرخايمية اليهود. ولم يقتصر هؤلاء النحاتون على مدينة تونس فقط بل كان لهم إشعاع كبير في عديد المدن الأخرى. كما أنّ عديد المعاهد العليا بتونس مثل معهد الفنون والحرف والمعهد العالي لمن التراث تثمن جملة من المهن من خلال ورشات ودعوات لحرفيين ومنهم حرفيين مختصين في حرفة النقش على الرخام.



مجموعة من قطع الرخام قبل صقلها وتحضيرها لعملية النقش.



النقش بالآلة الزنبر



اعداد الرخام قبل النقش باستخدام الأسطوانان (120 و 36)



مثال عن لوحتين منقوشتان باللغة العبرية من قبل السيد الشاذلي العقربي.



استخدام " المطرقة و الزنبرك.

من أدوات للنقش: البركار والشريط اللاصق والقلم



المحافظة على الاسم الأصلي لورشة الرخام " SOGEMAR " .



ورشة " غزلان " اخر حرفي يهودي (أمام المقبرة اليهودية "بورجل").

7- هوية الشخص المرجعية المعتمدة في استقاء البيانات

اعتمد العمل الميداني على 5 ورشات رخام بنهج الخضراء بتونس بين منطقة مالطة الصغيرة وباب الخضراء:
- فتحي العقربي، 35 سنة: صاحب معمل الرخام (SOGEMA) الذي كان صاحبه يهودي قبل استقراره بباريس، الهاتف: 97 542189.
- سمير الدريدي، 30 سنة مساعد فتحي العقربي، الهاتف: 97 993 211.
- هندة سعد، 32 سنة محافظة و مسؤولة عن المقبرة اليهودية "ببرجل" تنتمي إلى عائلة مسلمة تحرس وتحافظ على مقبرة "بورجل" منذ سنة 1956، الهاتف: 22 570 719.
- حبيب الفلاح، 50 سنة، الهاتف: 97 688 645.
- حميدة جلال، 53 سنة، اشترى هذا المحل من قبل الرخامي "بوخبزة"، الهاتف: 98 333 587
- الشاذلي العقربي 32 سنة، (الوحيد الذي ينقش الخط العبري على الرخام بمنطقة نهج باب الخضراء، الهاتف: 98 69 1388.

8- المصادر والمراجع

- المكتوبة

- بن رجب (رضا)، النخب اليهودية في تونس وموقعها من الاقتصاد والسياسة (دراسة في الأدوار الاقتصادية من خلال سجلات المتجر والالتزام في الفترة الحديثة (1685-1875)، تونس 2003.
- بن رجب (رضا)، يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانية (1685-1857)، بيروت، 2010.
- بن يدر (كريم)، الحرف والحرفيون بمدينة تونس خلال القرنين 18 و 19، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 2004-2005.
- بو علي (لطي)، الحرف والحرفيون في الإيالة التونسية في أواخر القرن 18 وبداية القرن 19 ميلادي من خلال وثائق البايليك، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 1992-1993.
- شاشية (حسام الدين)، السفارديم و الموريسكيون: رحلة التهجير و التوطين في بلاد المغرب (1492-1756) أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ تحت إشراف دلندة الأرقش، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2014.
- Fellous (M.), collectif, *Le cimetière du Borgel de Tunis, Patrimoine en péril*, AICJT, Paris, 2016.
- Sadaoui (A.), *Ifriqiya. Treize siècles d'art et d'architecture en Tunisie*, Musée sans frontières, Tunis, 2000.
- 1991.
- Sadaoui (A.), « Le marbre d'Italie dans l'architecture de la ville de Tunis à l'époque ottomane », In *Architecture italienne de Tunisie*, édit. Finzi, Tunis, 2000.
- Sadaoui (A.), *Le remploi dans les mosquées ifriqiyennes aux époques médiévale et moderne*, CNRS, 2008.
- Sadaoui (A.), *Tunis Architecture et Art Funéraires, Sépultures des deys et des beys de Tunis de la période ottomane*, Tunis, 2010.
- Sadaoui (A.), *Tunis, ville ottomane : trois siècles d'urbanisme et d'architecture*, Tunis, 2001.
- Sebag (P.), *Histoire des juifs de Tunisie : des origines à nos jours*, Paris, 1991.

- السّمْعيّة البصريّة

- فيلم وثائقي لقناة أردنية ضمن برنامج مراسلون، "مخلفات الرخام ثروة مستغلّة في تونس"، بتاريخ 2 سبتمبر 2017.
- مقطع فيديو حول "رخام تالة وتلميعه"، بتاريخ 30 جانفي 2021.

- المواد الوثائقية المحفوظة في المتاحف والأرشيفات والمجموعات الخاصة

- الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة م/ صندوق 1 / ملف 11: خريطة مدينة تونس سنة 1860.
- الشواهد الرّخاميّة المنقوشة بمقبرة "بورجل".
- الشواهد الرّخاميّة بالمقابر الإسلاميّة.

9- معطيات تقنية حول عملية الجرد

- تاريخ البحث الميداني ومكانه

- جوان 2018 / جانفي 2019 / افريل 2020.

- جامع أوجامعو المادّة الميدانيّة

- سعاد التومي محافظ مستشار تراث بالمتحف الوطني بباردو.
- موشي أوزان، مساعد كبير الأحبار بتونس.

- تاريخ إدخال بيانات الجرد

- 23 مارس 2019 / 19 جانفي 2022.

- محرّر البطاقة

- سعاد التومي، محافظ مستشار تراث بالمتحف الوطني بباردو.

- تحيين المعطيات الميدانيّة

- جانفي 2022.